صورة الخيل في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي

" دراسة في التشكيل والدلالة "

أ.م.د/ يوسف عباس علي حسين

أستاذ الأدب العربي القديم المساعد

كلية الألسن – جامعة الأقصر

مقدمة

استخدم العرب القدامى الخيل في الحرب والسلم ، حيث إن الخيل لا تفارقهم في حلهم وترحالهم فلا عزة للعربي إلا بالخيل ، فبها تُقهر الأعداء ، وقد كانت القبائل العربية تفخر بفرسانها كما كانت تفخر بشعرائها ، والعرب تفرح بثلاثة أشياء: إذا نبغ شاعر، أو أنتجت فرسة أو ولد مولود ذكر ؛ حيث إن كثرة فرسان القبائل يدل على عظمتها وقوتها، فمن خلالها يخوضون الحروب ويحققون الانتصارات ، والفارس يدافع عن كرامته وعرضه ، وكذلك شرف الآخرين وكرامتهم ، لذا فإن صورة الخيل تمثل مكانة مهمة ، فلم تكن مهمتها قاصرة على التنقل والترحال، فقد شاركتها الإبل في هذا الأمر، ولكن لا تأخذ مكانها حيث إن الخيل وجدت لشن الغارات .

وقد اعتمدت فئة من الصعاليك في غزواتهم على النهب والسلب ، فـ" عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة (نجد وشمالي الجزيرة العربية) ، ولم يذكر عنهم أنهم كانوا من الرجالين ، وإنما كانوا يستخدمون الخيل أحياناً ؛ وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الخيل " [١]

فتطرق الصعاليك إلى وصف خيولهم ، وأضفوا عليها صفات القوة والشجاعة ، وهي صفات تفوق صفات يتمتع بها الإنسان ، وتعكس نفسية الصعلوك الجاهلي ، الذي امتهن مهنة الصعلكة ليغزو ويأخذ من الأغنياء ويعطى الفقراء ، وهذه هي فلسفتهم في الحياة . وقد عبر الشعراء الصعاليك عن مراميهم من خلال صورة الخيل ، التي عبر عنها الكثير من شعرائهم من خلال فرحهم وترحهم .

١- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليف – دار المعارف – مكتبة الدراسات الأدبية – ط(٣) (د.ت) / صـ٨١

وقد كان للخيل دور كبير في الغزوات وكذلك في السلم؛ مما جعلها تتربع على محور الأشياء الأثيرة عندهم .

وقد تناول البحث صورة الخيل في شعر الصعاليك تناولاً نقدياً ؛ تمهيداً لإيضاح رؤية مناسبة لقراءة صورة الخيل ، وتجلياتها في ضوء النصوص التي أخضعها الباحث للدراسة ؛ حيث إن صورة الخيل مليئة بالدلالات الشعرية والرمز ، فقد سلك الشاعر القديم بصفة عامة ، والصعلوك بصفة خاصة اتجاهات ومناحٍ عدة ؛ ليعبر عن دلالاته من خلال صورة الخيل .

وفكرة الدلالة وإنتاجها في شعر الصعاليك مرتبطة بالشكل في النص الشعري ، ويمكن كشف رؤى الشعراء الصعاليك التي لا يمكن حصرها في تعبيراتهم السطحية أو الإرهاصات الأولى للنص ، كما أنه يمكن كشف تجسيد دلالة صورة الخيل من خلال معرفة أشكال حياة الصعاليك ، وما حولهم من صراعات .

- **سبب اختيار الموضوع :**

من خلال المطالعة لشعر الصعاليك والدراسات التي أقيمت حول حياتهم، وبوصف جل النقاد لهم بالرجيلاء والعدائين ، وكيف اعتمد هؤلاء على أرجلهم في الغارة والنجاة من المطاردين لهم ، حتى امتدحوا عَدوهم في شعرهم .

ومن ثم كان هناك دافع للقيام بدراسة الخيل في شعر الصعاليك؛ للوقوف على صورة الخيل في شعرهم وكيف يرى الصعلوك تلك الخيل التي تشاركه السرعة ، وكيف تشكلت صورة الخيل في مخيلة الشاعر الصعلوك، وكيف صنع منها معادلاً موضوعياً لذاته وأقرانه ومفردات بيئته ومحددات شخصيته .

لذا وجب دراسة صورة الخيل في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي ؛ لإلقاء الضوء على الجانب الخفي لصورة الخيل في نفس الشاعر الصعلوك ومخيلته .

- أما المنهج المتبع في الدراسة ، فيتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي ، وقد فرضت طبيعة الدراسة أن تكون الدراسة في مبحثين يسبقهما مقدمة وتعقبهما خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع ، فتناولت الدراسة في المقدمة : توطئة عن الموضوع وسبب الاختيار والمنهج المتبع في الدراسة .

-**أما التمهيد** : تناول **صورة الخيل عند الشعراء**

أ- صورة الخيل عند الشعراء من خلال رؤية نقدية تراثية

ب - صورة الخيل عند الشعراء من خلال رؤية نقدية حديثة

المبحث الأول : تناول صورة الخيل بين الوظيفة الشعرية وإنتاج الدلالة ، وانقسم إلى قسمين :

أ- إنتاج الدلالة الشعرية .

ب-دلالة المقطوعة في شعر الصعاليك.

- بنية المقطوعة :

١-بنية خطية متنامية .

٢-بنية دورية .

٣-بنية التوازي .

٤-بنية قائمة على أساس المقابلة .

المبحث الثاني : تناول دلالة الخيل في شعر الصعاليك

أ-دلالة الذات القصية في شعر الخيل عند الصعاليك.

ب-المعادل الموضوعي والفني للانفعالات .

- **خاتمة**
- **ثبت المصادر والمراجع .**

تمهـيـــــد

صورة الخيل عند الشعراء

أ-صورة الخيل عند الشعراء من خلال رؤية نقدية تراثية

لقد كان للخيل دور مهم منذ القدم ، مما جذب انتباه الشعراء والنقاد قديماً وحديثاً ، فقاموا بدراسة الخيل من ناحيتين :

الناحية الأولي : دورها في السلم والحرب ، **والناحية الثانية :** التعبير عن الخيل من خلال البناء الفني في القصيدة ، حيث جاشت عواطف الشعراء بحسب تجاربهم الشعرية التي مروا بها ، فعبروا عن التفاصيل والعناصر والبواعث وغير ذلك من الأمور التي ساعدت على ظهور شعر الخيل .

والخيل كانت وسيلة من وسائل التنقل والترحال للوصول إلى أرض المحبوبة والممدوح ، فيبدأون قصائدهم بذكر الأطلال وبقايا الديار ، فيقول ابن قتيبة : " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن مع خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ... ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحل الهجير وإفضاء الراحلة والبعير" [٢].

فمن خلال كلام ابن قتيبة السابق يتضح أن الشاعر الجاهلي يسير على نهج تقليدي لم يكن له يد في وضعه ، وإنما فرض من السابقين ، ويعد لبنة أساسية في بناء القصيدة الجاهلية وفق ما حدده ابن قتيبة بادئين بالطلل ووصف الرحلة ثم الغرض الأصلي للقصيدة ، ولكن ما يهم هذه الدراسة هو الحديث عن رحلة الشاعر التي تعد الخيول فيها محوراً أساسياً ، فالطلل والراحلة يعدان محورين تقليدين من نتاج البناء الفني للقصيدة الجاهلية ؛ مما جعل " التأثر الأولى لآراء ابن قتيبة في توصيف البناء الشعري

٢- الشعر والشعراء – ابن قتيبة الدينوري – ط ليون سنة ١٩٠٢ / ١ : ٥

الجاهلي ، يكشف عن فساد في تصور ابن قتيبة ، وهو تصور مشوه لوجود مقدمة كلية للقصيدة الجاهلية"[٣] .

ويعد امرؤ القيس أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ، حيث قام بـــ " استيقاف صحبه ، والبكاء ، ورقة النسيب ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض " [٤] ، فالوقوف على الاطلال وذكر الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم كلها أشياء تقليدية ، أي معزولة عن جسد النص مما أفقدها الكثير من معناها ودلالاتها ، فحينما تحدث الجاحظ عن الحيوان كان يحمل حديثه دلالات ، تلك الدلالات تنم عن توجيه الذات الشاعرة لمسارات تلك القصص بما يحقق الوظيفة الشعرية التي اقتضت بروزها في النص ، فيقول الجاحظ : " ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً أو قال : كأن ناقتي بقرة من ضمنها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها " [٥].

من خلال ما سبق نستطيع القول بأن الجاحظ وجد غاية الدلالة الشعرية مستمدة من الشاعر ، فشعراء الصعاليك حينما يتحدثون عن الخيل من باب السرعة ، حيث يقول تأبط شراً موضحاً ذلك :

يفـــوتُ الجيـــــادَ بتقريبـــــهِ ويكســـُو هواديَهـــا القسطـــلا
ويعترق النقنق المسيطـــــــــر والجأب ذا العانـــة المسحـــــــلا
وأدهمَ قد جُبتُ جلبابـــــــــهُ كما اجتابت الكاعبُ الخيعـــلاَ[٦].

٣- الرؤى المقنعة – كمال أبو ديب – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ – صـ٤٧٣
٤- طبقات فحول الشعراء – ابن سلام – ت/ محمود محمد شاكر – دار المعارف – مصر – ط(١) سنة ١٩٥٢ / صـ٦٣
٥- الحيوان – الجاخظ – ت / عبد السلام هارون – مصر سنة ١٩٤٥ / ٢ : ٢٠
٦- ديوانه /ص١٦٣-١٦٤.

وضح الشاعر في الأبيات السابقة صورة عدو الخيل ، وهو يرفع الجواد يديه معاً ويضعهما معاً ، وهو عدو دون الإسراع ، ولكنه يثير في عدوه الغبار فيكسو سوابق الخيل

كما حرص الصعاليك العداءون على تسجيل ظاهرة طريفة في حديثهم عن العدو ، وهي حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها ، وهي ظاهرة تستمد طرافتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها"[٧].

كما أنهم يلجئون إلى سمة التشخيص للحيوانات بصفة عامة ، والخيل بصفة خاصة ، فها هو عامر بن الطفيل يجعل الخيل مثلها مثل الفارس ، تحجم في المعركة ، لشدة هول الحرب ، وما تشاهده من لظى نيرانها ، فيقول :

ولَقَـــد أبَلْتُ الخَيــلَ في عَرَصاتِكُـــمْ وَسْطَ الدّيارِ بكُلّ خِرْقٍ مِحــرَبِ

وشفيتُ نفسي من فـــزارة إنهـــم أهلُ الفعال وأهلُ عـــزٍ أغلــب

ولقد فخـــرتَ بباطلٍ عددتـــــهُ فإذا أتيتَ بيوت قومك فاحسب[٨]

وكان القدماء يهتمون بتفاصيل التفاصيل ، فجعلوا للنص الشعري تميزاً من خلال سياقه العام وآليات بنائه المستمدة من طبيعة اللغة ، فيكشفوا " عن تلك النفسية والعقلية المختزنتين عند الشاعر ، التي منها تتبع تلك الصورة " [٩] .

وهذا الشعر الذي عرفه العرب عند الشعراء الجاهليين ، وجد قريباً من الكمال ، حائزاً على أسباب الجمال والاتقان ، لفظاً ومعنى " [١٠] .

ب – صورة الخيل عند الشعراء من خلال رؤية نقدية حديثة

٧-ينظر :الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليف – دار المعارف سنة ١٩٧٨ / صـ٢٢٤- ٢٢٥

٨- ديوان عامر بن الطفيل – تحقيق أنور أبو سويلم – ط(١) – دار الجيل – بيروت سنة ١٩٩٦ / ص١٦-١٧

٩- الخيل في الشعر الجاهلي – حمود بن خلفان – رسالة دكتوراه – جامعة مؤتة – الأردن – سنة ٢٠٠٥ / صـ١٢٤

١٠- ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – يحي الجبوري – مؤسسة الرسالة ، بيروت – ط(٥) سنة ١٩٨٦ / صـ١٢٨-١٢٩

أما عند الحديث عن المحدثين ، فقد كانت لهم وجهات نظر تختلف في وصف الرحلة سواء كانت الخيل أم النوق فكان الشاعر الجاهلي يعبر تعبيراً " لم يكن صادراً عن تشاؤم ، وإنما كان حافزاً يحفزه على الإقبال على الحياة ، واستئناف الرحلة بروح وثابة ، إذ كان يتم نسيبه بكلمتين صغيرتين : دع هذا ... بينما يقول الشاعر الكلمتين الصغيرتين يعود إلى حياته المعتادة " (١١) .

فمن خلال الرحلة يستطيع الهروب من قسوة الصحراء ، باحثاً عن أماكن المياه والكلأ ، فهي تمثل هواجس للشاعر الجاهلي فـــ " ينظر إليه كلما دارت به الحياة ، فيدرك أنه لا يزال في يده شئ جوهري من ماضيه العزيز يمكن أن يبني عليه مستقبله ، ثم يستأنف رحلته في طريق الحياة الذي لا ينتهي إلا حيث ينتهي جميع الأحياء ، وهذا هو السر في تعلقه بها ، وحنينه إليها ، وربطه بينها وبين الديار ، ديارها أولاً ، وديار الجنس المشرد ثانياً " (١٢) .

ولكن تعدد الموضوعات داخل القصيدة الجاهلية ، أدى إلى فقدها للوحدة الموضوعية ، و" لما كانت القصيدة الجاهلية متعددة الأغراض في الغالب ، فقد حرصوا حرصاً شديداً على الاهتمام بالشكل ، والدقة في الخروج من جزء إلى جزء خروجاً يشعر بالتحام الأجزاء وتماسكها ،لا بوجود حواجز واضحة بينها ، من هنا جاءت العناية بالتخلص من المقدمة إلى الغرض الرئيس " (١٣).

وشعر الصعاليك تتوافر فيه الوحدة الموضوعية على الرغم من أنه يعتمد على المقطوعات حيث " إن أكثر شعر الصعاليك تتوفر فيه الوحدة الموضوعية ، وليس هذا لأن شعر الصعاليك مقطوعات ولكن حتى القصائد الطويلة تجدها مترابطة متلازمة تتداعى أفكارها " (١٤).

١١- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي – حسين عطوان – دار المعارف – مصر سنة ١٩٧٠ / صـ٢١٧ .

١٢- الشعر العربي بين الجمود والتطور – محمد عبد العزيز الكفراوي – دار القلم – بيروت (د ت) / صـ٣٤ .

١٣- بنية القصيدة الجاهلية " دراسة فنية موضوعية "– سعيدة على عبد الواحد – رسالة ماجستير – جامعة أم درمان – السودان سنة ٢٠٠٧ / صـ٤٧

١٤- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – يحي الجبوري / صـ٢٦٦ .

فركوب الشاعر الفرس أو الناقة عبر رحلته ، كان فيه أواصر مودة وألفة بينهما ، حيث إن الشاعر الجاهلي ارتبط بالخيل ، فهي قريبة إلى نفسه ، يمتطيها في نزهته وعند ذهابه إلى الصيد ، وكذلك في الحرب ، فلا يبيع الجاهلي خيله مهما ضاقت عليهم المسالك ، فالنوق وسيلة للتنقل ، أما الخيل فهي للركوب ، واختاروا لها أسماء وحفظوها مثل : فرس عامر بن الطفيل المزنوق ، وفرس والده العطيل ، وفرس عنترة جروة ، وفرس قيس بن زهير العبسي " داحس والغبراء " [١٥] ، كما أن للخيل أهمية كبيرة في مساعدة الصعاليك على الإغارة من أجل إطعام الصعاليك والفوز بالغنائم من القبائل الثرية ،وهذا يرجع إلى عدم التوازن في توزيع الثروات حيث إن ، العرب آنذاك " لم تكن لهم دولة جامعة ولا قانون جامع ولا دين جامع " [١٦] .

فالجانب الاقتصادي وتركيز الثروة والمال عند مجموعة معينة من الناس مما خلق مجتمعاً يضم السادة والعبيد [١٧] فكل هذا كان سبباً للإغارة على القبائل الأخرى ، كما أنهم كانوا يمتلكون خيلاً نالت شهرة لا تقل عن شعراء عصرهم ، فكان لـــــــ" السليك بن السلكة " فرس يسمى "النحام " ، والشنفرى كان له فرس يسمى " اليحموم " ، وحاجز بن عوف الأزدي كان فرسه يسمى "ذئبه " ، ومالك بن الحريم كان فرسه يسمى " الكميت " ، وعروة ابن الورد كان يسمى فرسه " قرمل " ، فهذا دليل واضح على أن الصعاليك كانوا يهتمون بالخيل ويستخدمونها ، فالعقل يأبى أن يقبل فكرة أن الصعاليك لم تحتج إلى فرس لسرعة عدوهم ، وأن الصعلوك قد قطع تلك الصحراء الشاسعة ذهاباً وإياباً عدواً على قدميه ، وخاصة أن هناك فئة من الصعاليك ليسوا بعدائين ، كعروة ابن الورد وفتيانه ، فيقول يوسف خليف : " إن عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة (نجد وشمالي الجزيرة العربية) ، لم يذكر عنهم أنهم كانوا من العدائين أو الرجالين ، وإنما كانوا يستخدمون الخيل أحياناً ؛ وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الخيل "[١٨]

١٥-ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي – نوري حمودي القيس – عالم الكتب – ط(٢) سنة ١٩٨٤ / صـ٣٧١ .
١٦-ينظر :شعر الصعاليك :منهجه وخصائصه عبد الحليم حفني /ص ٤٢.
١٧- ينظر : السابق /ص ٥٥-٥٧ .
١٨- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليف /ص ٨١.

فكان الجاهلي يركب الخيل باحثاً عن المحبوبة التي أحبها ورحلت عنه ، وهذه المرأة ليست كغيرها من النساء ،حيث كان عروة بن الورد عطوفاً ، محباً لزوجته ، وهذا يظهر من أسلوب مخاطبته لها فيقول لامرأته وهى تعاود إلحاحها في منعه من الغزو :

ذَريني وَنَفســـــي أُمَّ حَسّــانَ إِنَّنـــي بِها قَبلَ أَن لا أَملِكَ البَيعَ مُشـــتَري
أَحــاديثَ تَبقى وَالفَتى غَيـــــرُ خــالِدٍ إِذا هُوَ أَمســى هامَــةً فَــوقَ صُيَّرِ
تجـــاوبُ أحجار الكنـــاس ، وتشتكي إلى كل معروف رأته ، ومنكــر (١٩)

وكان الشنفرى خشناً في معاملته وكانت حياته الخاصة خشنة ، أما قيس بن الحدادية فكان مثل عروة بن الورد محباً لزوجته وهي تحن وتخاف عليه من الأخطار ، وبعض أزواج الصعاليك شاركنهم في مخاطراتهم ، ودعونهم إلى الغارة وعيرنهم بقعودهم بين النساء وتحملهم مذلة الحاجة و الفاقة ، وكان هذا اللوم يحفزهم على الغزو ولم تكن النساء جميعهن بدرجة واحدة في الدعوة إلى ركوب المخاطر " (٢٠)

كما وظف الشعراء في قصائدهم صورة الخيل في صور متعددة ، على سبيل المثال لا الحصر صور عروة بن الورد صورة الخيل التي لم تخذل صاحبها حينما وقعت المصائب وأصحابه الذين خذلوه ، قائلاً :

فَلَمّا تَرَجَّت نَفعَــهُ وَشَبابَـــــــهُ أَتَت دونَها أُخرى حَديداً تُكَحِّـــلُ
فَباتَت لِحَـــدِّ المِرفَقَينِ كِلَيهِمـــا تُوَحــوحُ مِمّا نابَها وَتُوَلـــــولُ
تُخَيَّرُ مِن أَمرَينِ لَيســـــا بِغِبطَةٍ هُوَ الثَكلُ إِلّا أَنَّها قَد تَجَمَّـــــلُ
كَليلَةِ شَيباءَ الَّتي لَستَ ناسِيـــــاً وَلَيلَتِنا إِذ مَنَّ ما مَنَّ قِرمـــلُ(٢١)

١٩-ديوانه /ص٦٧.
٢٠- المرأة في الشعر الجاهلي – على الهاشمي – مطبعة المعارف – بغداد سنة ١٩٦٠ / صـ١٤١ – ١٤٢ .
٢١- ديوان عروة بن الورد ، ط ابن أبي شنب الجزائر سنة ١٩٢٦ / صـ١٢٢-١٢٣

حدث خلاف بينه وبين أصحابه ، حيث إنهم نسوا فضله في قسمة الغنائم ، ورفضوا أن يكون نصيبه كنصيب واحد بينهم كحال أم رعت ابنها صغيراً ، فسهرت على راحته ، فلما وصل إلى مرحلة الشباب سلبته منه امرأته ، فباتت تولول ، فصارت بين أمرين ليس فيهما خير فإما أن تثكله وتبكيه كالأموات ، وإما أن تصبر وتتجمل ، وهذا هو حال عروة إما أن يغضب ، وإما أن يترك معروفه فيهم .

ويقول قيس بن الحدادية واصفًا خيله بأنها حافية تتحمل المصاعب :

نحن جَلَبْنَا الخيــلَ من بطن ليَـــّةٍ وجِلدانَ جُرْداً مُنْعَلاتٍ ووُقّحـــــا
فأصبحن قد جاوزن مَرّا وجُحْـــفةً وجاوزن من أكناف نخلةَ أَبطَحـــا
تلقطن ضيطارى خُزاعــة بعدمـــا أبرقَ بصحراء الغميمِ الملوحــا (٢٢)

صور الشاعر في الأبيات السابقة ما فعلته هوازن ببني ضاطر ، حيث جمع قومه وأغار عليهم وغنم منهم ما غنم ، كما أنه أتى بالخيل من مدينة "لية " وهى مدينة في نواحي الطائف ، وزار " جحفة " ، كما أنه استطاع أن يصور هو وخيله يسيرون على مسار واحد في تقاسم المعيشة من خلال زيارتهم لهذه المناطق .

ويقول عمرو بن براقة مفتخراً بعدوه وسرعته :

وَرُبَّ طَموحٍ في العِنانِ تَرَكتُهـــا بِسائِلَةٍ الحَصحاصِ مُلقىً لِجامُهـا
وَعادِيَةٍ سَومَ الجَـــرادِ وَزَعفُهـــا بِطَعنٍ كَساها مِنهُ رَدعاً كِلامُهـــا
دَنَوتُ لَها تَحتَ العَجـــاجِ فَأَدبَرَت شَواكِلُها اليُسرى كَثيراً سُهامُها(٢٣)

رفض الشاعرالوضع الاجتماعي الذليل ، باحثاً عن الغنائم في الليل ، وذلك لن يتحقق إلا بوجود السيف والخيل ، منطلقاً في الصحراء ، واجداً لذة في الغزو والطعن ، حيث تحدث عن سرعته التي تفوق سرعة الفرس ، وهذه السرعة انقذته من محاولة الإمساك به .

ويقول صخر الغي واصفاً فرسه بالسرعة والقوة :

٢٢- عشرة شعراء مقلون – حاتم صالح الضامن -ط بغداد -سنة ١٩٩٠/ص٣٣.
٢٣- ديوان عمرو بن براقة /ص١١٢.

هم جلبوا الْخَيْلَ مِنْ أَلُومَـــــــــةَ أَوْ مِنْ بَطْنِ عَمْقٍ كَأَنّهَا البجـــــــد
فأرسلوهـــــنَّ يهتلكـــــنَ بهـــــــــم شطر سوام كأنـــــها العجـــــدُ
كأنهـــــــم بين عكوتيـــــــن إلـــــى أكنافِ بُسٍ مُجلجل بـــــــرد (٢٤)

لقد وصف الشاعر فرسه ،فرسمه تارة في صورة الصديق المتشرد ، وأخرى بالسرعة والقوة ،كما أنه شبه خيله بالخيام لسوادها ،حيث يذهبن بهم إلى الهلكة وهم كالغربان ، وكذلك تلك الخيول تجول الصحراء .

فالشاعر الجاهلي الصعلوك لديه رؤية وروية في تركيب الأساليب التي تحمل الكثير من الدلالات في ميدان الشعر ؛ مما جعل القصيدة أكثر سحراً .

٢٤- شرح أشعار الهذليين -أبي سعيد السكري –(د.ت)- (دط) /١:٢٥٩

المبحث الأول

صورة الخيل بين الوظيفة الشعرية وإنتاج الدلالة :

لقد كان للخيل مكانة كبيرة في الشعر الجاهلي ، فهي تمثل للجاهلي عماد الحياة ، كما تعد الخيل عند أبناء القبائل وسيلة مهمة لتحقيق غاياتهم وانتصاراتهم ، حيث تمثل الخيل في القصيدة الجاهلية واقعاً حقيقياً ، فهى تمثل نصاً شعرياً إبداعياً ليس بمعزل عن الواقع ، فالقصيدة الجاهلية تنتمي إلى الفن الواسع وعالم الشعرية ، فعالم الشعر أو الشعرية واحد عند الأمم قديماً وحديثاً ، فالفنون متنوعة ومن بينها الشعر .

-إنتاج الدلالة الشعرية

القصيدة هي عبارة عن تشكيل لغوى له دلالته المختلفة "إذا كان العمل الأدبي – بعامة – يتوقف على الدقة في الصياغة ، فإن أولى مميزات الشعر هي استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائه ، فعلاقة تجربة الشاعر بلغته أوثق وأهم من علاقة تجربة القاص أو مؤلف المسرحية في العصر الحديث . وذلك أن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إيحاء بالمعاني في لغته التصويرية الخاصة به ، وفي لغة الشعر يخضع التعبير لقوانين اللغة العامة ، ولكنه يفيد مع ذلك من اعتماده على دلالات القرائن ، وما يمكن أن تضفيه هذه الدلالات على التصوير ، عن طريق موسيقية التعبير ،وموقعه وتآزر كلماته ، وأثر ذلك كله في التصوير ... ورأوا –مسترشدين في ذلك بثقافتهم الغربية – أن الشعر وسيلة استجلاء الأسرار النفسية والكونية كما عرفوا الطرق الفنية السليمة للتصوير والإيحاء " (٢٥).

فالقصيدة ليست رسوماً أو أغراضاً لا تمثل إلا الباعث الاجتماعي ولا تمثل إلا الواقع الخالص ؛ حيث إن الشعر له عالم خيالي ، وإلا أصبح تاريخاً ، فيعد الخيال غذاء للروح والعقل واللسان ، يقول أبو القاسم الشابي : وصفوة القول أن الإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه ، محتاج إليه بغريزته ؛ لأن منه غذاء روحه وقلبه ولسانه وعقله ، وأن

٢٥- النقدالأدبي الحديث – محمد غنيمي هلال – بيروت – دار العودة سنة ١٩٧٨ / صـ٣٨٦-٣٨٧

اضطراره إليه جعله في نظرة الأول حقيقة لا خيالاً وما أصبح يعرف الخيال من الحقيقة إلا بعد أن تطورت نظرته إلى هذه الحياة " [٢٦] .

حيث "إن الإيمان كان جزءاً من إيمان العصر بالذات الفردية وقدرتها على إبداع عالم من صنع الخيال ، وأنهم يستطيعون بممارستهم إياه أن يقوموا بخير مما قام به الشعراء الذين ضحوا به في سبيل الدقة والذوق العام . ومعنى ذلك أن الشاعر صادق صدقاً فنياً ، لا صدقاً أخلاقياً [٢٧]

فالقصيدة لها دلالتها ، كما أن الرحلة في القصيدة الجاهلية لها دلالتها أيضاً باعتبارها جزءاً من القصيدة ، ويجب التفرقة بين الدلالة والمعني لصورة الخيل في القصيدة ، وكذلك الوظيفة الشعرية ، فالصورة الشعرية قديماً وحديثاً لها دلالات ظاهرة وأخرى خفية بسبب الطبيعة الشفهية عند الإلقاء لفن الشعر ، فالصورة الشعرية هي ميدان خصب في إنتاج الدلالة والقصيدة لها دلالات كثيرة ، وتحمل أكثر من دلالة ، وقد وجدت دراسات قديمة قدم الموروث العربي القديم بين المعنى والدلالة ، فـ" سيبويه يضع الرمز الصوتي وصيغته الصرفية في جهة ، ويمثل في الجهة الأخرى مدلوله الجزئي ، ذلك أن الكلم ينصرف إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل " [٢٨].

وقد أدركت أهمية الدلالة حيث إنها " تدرس مأخذ المعنى ، ومناهج استخراجه من اللفظ ، كما تدرس أنواع الدلالة وتطورها ، والعلاقة بين الألفاظ ومعانيها ، ووظائف الصيغ " [٢٩] .

ويهتم علم الدلالة بالإشارة أو الإيحاء الذي يحمل مشاعر الشاعر وعواطفه المتباينة ؛ حيث إن الشعراء يتناولون في أشعارهم دلالات مختلفة عن صورة الخيل بوصفها صورة شعرية لها موقعها وأثرها في القصيدة ، وللخيل دلالات كثيرة لما للخيل من دلالات منتجة ، حيث وصل تعلق الشاعر الجاهلي بالخيل إلى الحد الذي طغى على كل ما تعلق بالحياة

٢٦- الخيال الشعري عند العرب – أبو القاسم الشابي – كلمات عربية للترجمة والنشر – مصر (د ت) / صـ١٥

٢٧- بناء القصيدة في الشعر العربي بالخليج – ماهر حسن فهمي – (د ت) / صـ٩٧

٢٨- الكتاب – سيبويه – مكتبة الأعلمى – بيروت سنة ١٩٧٦ / صـ٩

٢٩- علم اللغة – تمهيد عام – محمد حسن جبل – مطبعة السعادة – القاهرة سنة ١٩٨٢ / ٣٩

، فيجد نفسه متمثلة في ذات الخيل ، كما أن صورة الفرس أو الخيل هي صورة الرجل النبيل الذي ملأته العزة والثقة .

دلالة المقطوعة في شعر الصعاليك

تجاوز الشعراء الشكل السطحي في تصويرهم للمقطوعة؛حيث شكلت الحيوانات لوحات مختلفة من خلال مقطوعاتهم، والخيل وسيلة من وسائل الشاعر المتعددة ، فوصفها ووصف سرعة جريها ، وقوة وقع حوافرها ، ممثلاً إياها بالصقر .

وشعر الصعاليك عبارة عن مقطوعات تتخلله طبيعة حياتهم القلقة المشغولة بالكفاح ، وقد أشار عبد الحليم حفني إلى ملامح القصيدة في شعر الصعاليك ، حيث إن القصيدة أو المقطوعة تقوم على وحدة الغرض " وبهذا يكون شعر الصعاليك محققاً لوحدة القصيدة على أكمل وجه فني "[٣٠] .

وقد أورد يوسف خليف عن شعر الصعاليك بأنه : " أول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر مقطوعات ، ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه ، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة "[٣١] ، وقد وضع شعراء الصعاليك لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها ، على الرغم من وجود المقدمة الطللية عادة ، ولكن يوجد ترابط بين أبيات المقطوعة أو القصيدة دون أن نشعر بتفاوت في الأبيات ، فكانوا حريصين على الوحدة الموضوعية في أشعارهم ، فشعرهم يتجلى فيه غلبة المقطوعة على القصيدة ، فوردت المقطوعة على النحو التالي :

- **بنية المقطوعة :-**

١- بنية خطية متنامية .

٢- بنية دورية .

٣- بنية التوازي .

٣٠- شعر الصعاليك : منهجه وخصائصه –عبد الحليم حفني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ط(١) سنة ١٩٧٩ / صـ٤٠

٣١- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليف – دار المعارف – سنة ١٩٧٨ / صـ٢٥٩

٤- بنية قائمة على أساس المقابلة .

ونبدأ الحديث بـ

بنية المقطوعة

١) بنية خطية متنامية :

تقوم البنية الخطية المتنامية على السرد ، وقيام اللاحق منها على السابق ، كما أنها ترتبط بحادثة معينة ، وتمتاز هذه البنية بالتتابع ، ومن أمثلة ذلك ماورد في قول عمرو بن براقة :

تَقُولُ سُلَيمى لا تَعَرَّض لِتَلفَةٍ ... وَلَيلُكَ عَن لَيلِ الصَعاليكِ نائِمُ
وَكَيفَ يَنامُ اللَيلَ مَن جُلُّ مالِهِ ... حُسامٌ كَلَونِ المِلحِ أَبيَضُ صارِمُ
أَلَم تَعلَمي أَنَّ الصَعاليكَ نَومُهُم ... قَليلٌ إِذا نامَ الخَلِيُّ المُسالِمُ[٣٢]

نفى الشاعر في الأبيات السابقة النوم عن الصعاليك بصفة عامة وعنه بصفة خاصة ؛ لأن من ينام الليل يكون خالياً للبال ومسالماً ، أما الصعاليك فبالهم غير خالٍ، وكذلك غير مسالمين ، فيكون نومهم قليل وليس بكثير ، كما يمكن ملاحظة الترابط الدلالي حيث استخدم الشاعر حرف الواو ، مثال : "وليلك عن ليل الصعاليك" و "وكيف ينام الليل "، فيذكر صفات الصعاليك ، منطلقاً من نقطة معينة وهي "ليل الصعاليك "الذي يختلف عن ليل الآخرين حتى يصل إلى أقصى غاية لهم وهي أن خالي البال هو الذي ينام وكذلك الإنسان المسالم.

ويقول الشنفرى :

ألا هل أتى عنا سعاد ودونها ... مهامه بيد تعتلي بالصعالك
بأنا صبحنا العوص في حد دراهم ... حمام المنايا بالسيوف البواتك
قتلنا بعمر ومنهم خير فارس ... يزيد وسعداً وابن عوف بمالك
ظللنا نفري بالسيوف رؤوسهم ... ونرشقهم بالنبل بين الدكادك[٣٣]

٣٢- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه – عبد الحليم حفني / صـ٢٧٧

٣٣- ديوان الشنفرى /ص ٥٧.

يلاحظ من الأبيات السابقة أن السرد كان متنامياً وتراكمياً ، حيث استهل الشاعر أبياته بعملية الحكي ، فأتى في البيت الثاني لينقل لنا اللحظة الزمنية الأولى لبدء السرد ، مستخدماً للفعل الماضي (صبحنا) أي أغرنا عليهم صباحاً ، ثم أتى في البيت الثالث بالفعل (قتلنا) ليصل إلى وسط المعركة ، وقال في البيت الرابع (ظللنا) ليوضح تفاصيل عملية القتل ، فاتضحت من خلال الأبيات السابقة البنية الخطية المتنامية من خلال سرد الأحداث بشكل متنام .

ويقول عروة بن الورد :

أَعَيَّرتُموني أَنَّ أُمّـــي تَريعَـــــةٌ وَهَل يُنجِبَن في القَومِ غَيرُ التَرائِعِ

وَما طالِبُ الأَوتـــارِ إِلّا اِبنُ حُـــرَّةٍ طَويلُ نَجادِ السَيفِ عاري الأَشاجِعِ[٣٤]

لقد تعاير الشاعر بأمه بأنها تريعة ، كما يلاحظ الترابط الدلالي في البيتين السابقين من خلال استخدام حرف الواو؛ مما أدى إلى تنامي فكرته في داخل القصيدة .

٢) بنية دورية

تظهر البنية الدورية في تأثيرها المتبادل بين الأطراف ، حيث " تتكون هذه البنية من عناصر متكافئة لا يهيمن أحدها على الآخر من حيث المبدأ ، ولكنها متفاعلة فبمجرد ما يتأثر أحدها يسرى التأثير في باقيها"[٣٥]

وقد تمثلت البنية الدورية في قول الشنفرى :

أَلا لا تَعُدنـــي إِن تَشَكّيتُ خُلَّتـــي شَفاني بِأَعلى ذي البُرَيقَين غَدَوتي

وَإِنّي لَحُـــلوٌ إِن أُرِيَدت حَـــلاوَتي وَمُـــرٌّ إِذا نَفسُ العَزوفِ استَمَرَّتِ

أَبِيٌّ لِمـــا آبي سَريـــعٌ مَبـاءَتي إِلى كُلّ نَفسٍ تَنتَحي في مَسَرَّتي[٣٦]

٣٤-ديوانه /ص٨٥.

٣٥- ديوان عروة بن الورد – دار صادر – بيروت (د .ت) / صـ١٩١

٣٦- التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية – محمد مفتاح – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – بيروت – ط(١) سنة ١٩٩٦ / صـ١٣

يلاحظ أن الشاعر في الأبيات السابقة بين حالين لا ثالث لهما ، أي بين الحلاوة والمرار ، فهو حلو لمن طلب حلاوته ومر إذا توجس به أحد ولا ينتظر من الحالين غيرهما ، ولا تتضح دلالة كل منهما بعيداً عن الآخر .

فلا أهمية لحديثه عن الحديث الحلو بعيداً عن حديثه المر ، ومن هنا استطاع الشاعر أن يجسد العلاقة المتبادلة بين كونه في الحالين .

ويقول تأبط شراً :

إذا خاطَ عَينَيهِ كَرى النَـــومِ لَم يَزَل لَـــــهُ كالِئٌ مِن قَلبِ شَيحانَ فاتِكِ

ويجعـــلُ عينيـــه رَبيئَةَ قلبـــه إلى سَلّةٍ من حدّ أخضـــر باتـــك (٣٧)

يقع الشاعر بين خطرين : إما طالب أو مطلوب ، وأن عينه على صلة بقلبه عندما يحس بالخطر ، فالعين ترى الخطر ، وقلبه يحرسه من الخطر ، فينبهه على هذا الخطر الذي سيلم به ، فيظل يقظاً ، فكلاهما مرتبط بالأخر(العين والقلب)، وهذا يجسد العلاقة المتكافئة بينهما ، ولا تتضح دلالة كل منهما بعيداً عن الآخر .

٣) بنية التوازي :

تكون الفكرة واحدة لقضيتين بموازاة بعضهما ، ولا يجتمعان في الظاهر غير أنهما متجاورتان، حيث يوازي صوت حوافر الخيل في مشيته وجريه علي الأرض ، وتتمثل هذه البنية في قول الشاعر :

وَقالوا اِحبُ وَاِنهَق لا تَضيرُكَ خَيبَـــرٌ وَذَلِكَ مِـــن دينِ اليَهـــودِ وَلوعُ

لَعَمري لَئِن عَشَّرتُ مِن خَشيَةِ الرَدى نُهاقَ الحَميرِ إِنَّني لَجَـــــــزوعُ

فَـــــلا وَأَلَت تِلكَ النُفـوسُ وَلا أَتَت عَلى رَوضَةِ الأَجدادِ وَهِيَ جَميـــعُ

فَكَيـــفَ وَقَد ذَكَّيتُ وَاِشتـــدَّ جانِبي سُلَيمى وَعَنـــــدي سامِعٌ وَمُطيعُ

لِســانٌ وَسَيفٌ صارِمٌ وَحَفيظَـــــةٌ وَرَأيٌ لِآراءِ الرِجـالِ صَـروعُ (٣٨)

٣٧- ديوان تأبط شراً /ص١٥٢-١٥٣

٣٨- ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك – دراسة وشرح وتحقيق / أسماء أبو بكر محمد – دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩٨ / صـ٨٠

غير خاف هنا أن الشاعر يتحدث في البيتين الأول والثاني عن عادة معروفة عند اليهود وهي أن من دخل خيبر ونهق عشر مرات لم تضره الحمى ، ثم تحدث عن عدم الخوف من الموت ، فيوجد توازي بين بعدين لفكره واحدة ، ويتمثل البعد الأول : في وجود تقليد ديني عند اليهود قد يؤدي إلى النجاة من الموت ، وسرعان ما يظهر البعد الثاني موازياً له مناقضاً لتقليد اليهود ، لكن يلاحظ أن البعد الثاني سيطر على البعد الأول .

ويقول عروة في موضع أخر :

لِكُـــلِّ أُناسٍ سَيِّـــــدٌ يَعرِفونَـــــهُ وَسَيِّدُنـــا حَتّى المَمـــــاتِ رَبيعُ
إِذا أَمَرَتني بِالعُقــوقِ حَليـــــلَتي فَلَم أَعصِهـا إِنّي إِذًا لَمَضيــعُ (٣٩)

فكره التوازي ليست غياب بُعد يلغي الأخر ، بل مرتبط به ، فيلاحظ وجود بعدين ، البعد الأول :يوضح علاقة الشاعر بسيده ، أما البعد الثاني : يتحدث فيه الشاعر عن علاقته بزوجته ، ويلاحظ أن كل بعد مستقل بذاته ويجمعهما التوازي ، ولكن التوازي يؤدي إلى علاقتين في النص ، العلاقة الأولى : تتحدث عن علاقته ب"ربيع "المبنية والمرتبطة بالاستجابة والخضوع ، بينما علاقته مع ربيع زوجته تقوم على العصيان ، مما يشكل وجود علاقة خفية بين العلاقتين ، فعصيان الزوجة موازي لطاعة السيد ، فيلاحظ تجاور بعدين لا علاقة بينهما لكن التوازي جعل بينهما دلالة ضمن البنية العميقة .

٤) بنية قائمة على أساس المقابلة

تتكون هذه البنية من طرفين بينهما علاقة تضاد أو تناقض بين موقفين ، ومن ذلك قول عروة بن الورد :

إِنّي اِمــرُؤٌ عـــافي إِنائِيَ شِركَـــةٌ وَأَنتَ اِمـــرُؤٌ عافي إِنائِكَ واحِـدُ
أَتَهــزَأُ مِنّي أَن سَمِنتَ وَأَن تَـــــرى بِوَجهي شُحوبَ الحَقِّ وَالحَقُّ جاهِدُ
أُقَسِّـــــمُ جِسمي في جُســـومٍ كَثيرَةٍ وَأَحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بــارِدُ(٤٠)

٣٩- السابق / صـ٨٤
٤٠- السابق / صـ٥٦

أراد الشاعر في الأبيات السابقة أن يقابل بين فعلين هما فعل الصعلوك ، وكذلك فعل غير الصعلوك ، فهو يوضح لنا صفة مقابل أخرى ، فمن الألفاظ التي أراد مقابلتها (الشركة تقابلها الوحدانية – الجسم المقسم بقابله الجسم الواحد– والسمنة يقابلها الشحوب) وتتجلي في النصوص الأخرى المقابلة بين فعلين واسمين في قول الشنفري :

ولا خَـــرِقٍ هَيْقٍ كـــأنَّ فُـــؤَادَهُ يَظَـــلُّ بهِ المُكَّـــاءَ يعْلُو ويَسْفُلُ
ولا خَالِـفٍ دَارِيَّـــةٍ مُتَغَـــــزِّلٍ يَرُوحُ ويغْـــدُو دَاهِنـــــاً يَتَكَحَّلُ
ولسْـــتُ بِعَلٍّ شـــــرُّهُ دونَ خيرِهِ أَلَفَّ إذا مـــا رُعْتَهُ اهتاجَ أعْزَلُ (٤١)

غير خافٍ من الأبيات السابقة المقابلة بين فعلين (يعلو – يسفل) في البيت الأول ، وكذلك بين (يروح – يغدو) في البيت الثاني ، أما البيت الثالث فجاءت المقابلة بين الاسمين (شره – خيره)

٤١- ديوان الشنفرى – حققه وشرحه / أميل بديع يعقوب – دار الكتاب العربي .ط(٢) سنة ١٩٩٦ / صـ٦١ – ٦٢

المبحث الثاني

دلالة الخيل في شعر الصعاليك

إن الشعر الجاهلي يحمل دلالات عظيمة ، ما بين الرؤية الواقعية للحيوان وبين النظرة الرمزية التأويلية التي من خلالها يمكن استجلاء نفسية الشاعر ، فشخصية الشاعر الصعلوك وهواجسه تبدو متجسدة في شخصية الحيوان بصفة عامة، والخيل بصفة خاصة ، فاتصال الشاعر بفرسه يعبر عن خفقاته ونبض أحاسيسه ، فيبوح إلى فرسه بهموم وآهات دامعة بينهما لغة التفاهم ؛ لأنه يرى في الفرس الأصالة والنجابة ، والحصن الحصين ، والدرع المتين ، والصاحب المعين ، فيكرمها لأن إكرامه للخيل هو إكرام لنفسه ، وتحقيره هو تحقير لذاته ، كما استخدمت الخيل في الحروب ، فالخيل تشكل عماداً أساسياً " فظهور الخيل ترويضها لخدمة الإنسان كان من العوامل الحاسمة في سير التاريخ ؛ لأن قيام كثير من الممالك القديمة كان رهناً بمدى اقتناء الخيول السريعة ، أو بمدى معرفتها لوسائل استخدامها " [٤٢]. فاشتركت الخيول في الوقائع ، حيث إن بعض الوقائع لا تتجاوز بضع فرسان ، يغيرون فجأة ثم يفرون ، فأخذ الشعراء الصعاليك يصورون تلك الخيول ويفتخرون بها ، ويخوفون بها أعداءهم ، فيقول الشنفرى :

ولا عَيبَ في اليَحمــومِ غَيرُ هُـــزالِهِ عَلَى أَنَّهُ يَومَ الهِـيــاجِ سَــمــيــنُ
وكَــم مِــن عظيمِ الخَلق عبلٍ مُوثَّق حواهُ وفيهِ بَـــعدَ ذاك جُــنــونُ[٤٣]

إن في البيتين السابقين مدحًا بما يشبه الذم ، حيث إن الشاعر يرى إنه لا يوجد عيب في فرسه غير هزاله ، فيدل على مدى حبه لفرسه على الرغم من هزاله، فأصبح الهزال مستحسناً ؛ حيث جعل فرسه يفوز على كل خيل سمين ، ومن خلال الوصف الدقيق المستمد من معيشة الشاعر الهزيل ونفسيته القوية في الوقت نفسه ، وكأنه يوجد تناغم بين الشاعر وفرسه ، فيقول يوسف خليف :

٤٢- الطبيعة في الشعر الجاهلي – نور القيس – مكتبة النهضة العربية – ط(٢) بيروت سنة ١٩٨٤ / صـ١١

٤٣- ديوان الشنفرى/ صـ٧٧

" وطرافة الصورة السابقة تأتي من أن (الشنفرى) يضفي صفات التصعلك على جواده ، فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه – أيضاً – جرئ ومقدام " (٤٤) .

ويقول تأبط شراً :

وَأشـقـرُ عَـيـداقُ الجـراءِ كَـأنَّهُ عُـقـابٌ تَـدَلّى بَـينَ نـيـقـين كـاسِـرُ
يَـجُـمَّ جُـمـومَ البَحـر طـالَ عُـبـابُهُ إذا فـاضَ مِـنـهُ أوَّلٌ جـاشَ آخِـرُ
لَئِن ضَـحِـكَـت مِـنـكَ الإمـاءُ لَقد بَكَت عَـلَـيكَ فَـأعـوَلَنَ النِـسـاءُ الحَـرائِرُ(٤٥)

صور الشاعر في الأبيات السابقة فرسه بفاعلية حركية ، وهى لحظة مبارزة فروسية ، يساعد فيها الفرس فارسه الصعلوك ، مصوراً فرسه بالعقاب في سرعته، وتارة أخرى وصفه بالبحر مما يدل على قوة فرسه .

وفي موضع أخر يقول السليك واصفاً فرسه النحام :

كَـأنَّ قـوائِمَ النَـحـامِ لَمّـا تَـحَـمَّـلَ صُـحـبَتـي أصُـلاً مَـحـارُ
عَـلى قـرمـاءَ عـاليَـةً شَـواهُ كَـأنَّ بَـيـاضَ غُـرَّتِهِ خِـمَـارُ
وَمـا يُـدريـكَ مـا فُـقـري إلَيـهِ إذا مَا القَـومُ وَلَّوا أو أغـاروا (٤٦)

أراد الشاعر في الأبيات السابقة توضيح حاجته إلى فرسه ،مسترجعاً لأيامه معه وذكرياته ، فحينما يسقطه يبكي عليه ، على الرغم من سرعة عدوه التي اشتهر بها من بين الخيول ، كما أنه أراد أن يوضح نفسه في فرسه ، حيث إنه يعد من الصعاليك ، وهم يمتازون بالسرعة والخفة ، فبينهما علاقة وطيدة في ذلك

ويقول مالك بن حريم الهمداني :

وَتَهدي بيَ الخَيلَ المُغيرَةَ نَهـدَةٌ إذا ضَبَـرَت صابَت قوائِمُهـا مَعـا
إذا وَقَعَت إحدى يَدَيهـا بثَبـرَةٍ تَجاوَبَ أثنـاءُ الثَـلاثِ بدَعدَعـا
قُوَيرِحُ سَبعٍ أو ثَمانٍ تَرى لَهـا إذا اِعرَورَتِ البَيـداءُ مَشياً هَمَلَّعـا

٤٤- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليف – دار المعارف – مكتبة الدراسات الأدبية – ط(٣) (د.ت) / صـ٢٢٣

٤٥- ديوان تأبط شراً وأخباره – جمع وتحقيق / على ذو الفقار شاكر – دار الغرب الإسلامي – ط (١) سنة ١٩٨٤ / صـ٨٢

٤٦- ديوان السليك بين السلكة– أخباره وشعره- دراسة وجمع وتحقيق / حميد آدم ثويني – كامل سعيد عواد –ط(١)- مطبعة العاني – بغداد – سنة ١٩٨٤ / صـ٥٢-٥٣

فَأصبَحنَ لَم يَترُكنَ وتراً عَلِمتُـــهُ لِهَمـــدانَ في سَعدٍ وَأصبَحنَ طُلَّعـا (٤٧)

اقتحم الشاعر الشدائد والأخطار بفرسه ، وغنم غنائم كثيرة ، فهو يفتخر به على الرغم من افتقاره إلى الفرس ،كما يفتقر إليه أي إنسان يعيش في هذه البيئة الصحراوية القاسية ، ومن الصعب أن يعتمد في أسفاره وترحاله على قدميه، والعقل يأبى أن يعيش الصعلوك بدون فرس لسرعة عدوهم .

ويأتي الشنفرى ويوضح حاجته إلى فرسه ، قائلاً :

بِعَامِلَتَيْنِ ، ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَـــلُ وَخَرْقٍ كظَهْرِ التُّرْسِ قَفْـــرٍ قطَعْتُـــهُ

عَلَى قُنَّـــةٍ أُقْعِي مِـــرَاراً وَأَمْتُـلُ فَأَلْحَقْـــتُ أَوْلاَهُ بِأُخْـــرَاهُ مُوفِيَاً (٤٨)

اعتمد الصعلوك على العدو على قدميه في أغلب الأحيان؛ لكن هناك من الصعاليك من ليسوا بعدائين مثل :عروة بن الورد وفتيانه ،ومن البيتين السابقين يتضح أن الصعاليك يعيشون في الصحراء المقفرة التي لا يوجد فيها أحد .

ويقول حاجز بن عوف :

فأمّـــا تعقـــروا فرســـي فإنّي أقدِّمهـــا إذا كثـــرَ التَّغـــاري

وأحملـــها على الأبطـــالِ إنّي على يومِ الكريهـــةِ ذو اصطبـــار

صليتُ بغمرةٍ فخرجـــتُ منهـــا كنصلِ السَّيفِ مختضـــبَ الغـــرار

كأنَّ الخيـــلَ إذ عرفـــت مقامي تفادى عن شتيمِ الوجـــهِ ضـــار (٤٩)

يعد الصعلوك ابن الحرب يغامر بفرسه ، فإذا عقروا فرسه قذفهم بنفسه وأخذ يحاربهم في سبيل الدفاع عن فرسه ، أي بينهما علاقة وطيدة لا أحد يستغنى عن الآخر .

ويقول مالك بن الحريم :

وَإنّـي لَأعدي الخَيلَ تُقدَعُ بالقَنـــا حَفاظـــاً عَلى المَلاى الحَريدِ لِيُمنَعـــا

وَنَحنُ جَلَبنا الخَيلَ مِن سَرو حِميَرٍ إلى أن وَطِئنا أرضَ خَثعَمَ أجمَعـــا

فَمَن يأتِنا أو يَعتَرِض بسَبيلِنـــا يَجِد أثَراً دَعساً وَسَخلاً مُوَضَّعـا

٤٧- ثلاثة شعراء مقلون (جمع وتحقيق ودراسة) – شريف راغب العلاونة – دائرة المكتبات والوثائق الوطنية – الأردن – ط(١) سنة ٢٠٠٧ / صـ٥٤-٥٥

٤٨- ديوان الشنفرى / صـ٧٢

٤٩- قصائد جاهلية نادرة -يحي الجبوري – مؤسسة الرسالة – بيروت -ط(٢)- سنة ١٩٨٨م /ص٧٧.

تَرى المُهرَةَ الرَوعاءَ تَنفضُ رَأسَها كَلالاً وَأَينا وَالكُمَيتَ المُقَزَّعا
وَنَخلَعُ نَعلَ العَبدِ مِن سوءِ قَودِهِ لِكَيما يَكونَ العَبدُ لِلسَهلِ أضرَعا (٥٠)

كان الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي حريصين على الاعتناء بالخيل ، حيث يفتخرون بعددهم فيجلبون الخيل من(سرو حمير) إلى حيث أقاموا بأرض (خثعم) ، فيطاردون الأعداء وتتعب خيولهم ، وعلى الرغم من تعب الخيول إلا أنها ظلت سريعة العدو .

ويقول عمرو بن براقة :

وَرُبَّ طموح في العِنانِ تَرَكتُها بسائِلَةٍ الحَصحاصِ مُلقىً لِجامُها
وَعادِيَةٍ سَومَ الجَرادِ وَزَعفُها بطعنٍ كَساها مِنهُ رَدعاً كِلامُها
دَنَوتُ لَها تَحتَ العَجاج فَأدبَرَت شَواكِلُها اليُسرى كَثيراً سُهامُها(٥١)

تعد الخيل عند الشاعر أقرب من الناس إليه ، حيث إنه لا يتخلى عنها ويتقاسم طعام بيته بين أبنائه وخيله ، كما أنه لا يفرط في خيله أو يبيعها مهما انقطعت به سبل العيش .

ويقول قيس بن الحدادية :

نحن جَلَبْنَا الخيلَ من بطن ليِّـــةٍ وجِلدانَ جُرْداً مُنْعَلاتٍ ووُقّحا
فأصبحن قد جاوزن مَرّا وجُحْفَةً وجاوزن من أكناف نخلةَ أَبطَحا(٥٢)

يفتخر الشاعر بخيله ووصفها بأنها تتحمل المتاعب ، حيث إنه جلب خيله من مدينة "لية " وهى من نواحي الطائف وزار جحفة وهى في طريق الشام ومصر، فهو وخيله سارا علي مسار واحد يتقاسمان معيشتهما .

ويقول عمرو بن براقة في موضع آخر :

غَبَرَت خَيلُنا نُقاسِمُها القَو تَ وَلَم يُبقِ حاصِدُ المَحلِ عودا
شَتَوَةٌ توسِعُ الجِمالُ لَها الرَس لَ وَنُسقي عِيالَنا تَصريدا
ذاكَ حَتّى إذا الرَبيعُ نَفى الأز مَةَ قُدنا بها شَياطينَ قَودا(٥٣)

٥٠- قصائد جاهلية نادرة – جمع وتحقيق / يحي الجبوري – مؤسسة الرسالة ط (٢) سنة ١٩٨٨ / صـ٧٧
٥١- ديوانه/ص١١٢.
٥٢- عشرة شعراء مقلون -حاتم صالح الضامن -ط بغداد -سنة ١٩٩٠/ص٣٣.
٥٣- ديوانه /ص٩٣.

يفتخر الشاعر في الأبيات السابقة بشجاعة خيله وقوتها ، ولكن على الرغم من الألفة بينه وبين خيله إلا أنه لم يذكر اسمها صراحة هنا ، لأنه يتحدث عن مجموع الخيل كلها ، فحديثه عن خيله وخيل رفاقه ، ولا يختص منها فرساً له أو لغيره ، لذلك كان وجوب عدم التسمية .

أ-دلالات الذات القصية في شعر الخيل عند الصعاليك

يُقصد بالذات هو حديث الشاعر ونظرته إلى الخيل ، وعلاقة الذات مع الخيل ، حيث برزت صورة الخيل في تجليات أخرى وهي أكثر التصاقاً بالذات الشاعرة ، فنراه في السلم والحرب ، ويستعيد ذلك من خلال بطولاته القتالية ، ففي شعر(تأبط شراً) تحولت الخيول من أداة إلى صورة وظهرت من خلالها تجليات الذات الشاعرة عبر عنائه ومشقته التي اختارها الشاعر لتفعيل صورة الخيل شعرياً على حسب تجربته التي عاشها ، وطبيعة العلاقة بينهما داخل عالم القصيدة، وصورة الخيل عند تأبط شراً تتنقل من مستوى الواقع إلى مستوى الدلالة ، أي الدلالة المنتجة التي تستخلص من المحتوى وليس عن طريق الإشارات الصريحة ، فهي تتلون طبقاً لطبيعة الرؤى الموجودة في القصيدة ، حيث إنها تحمل معانٍ كثيرة ، من الصبر والسرعة ، فيقول واصفاً فرسه :

يَسري عَلى الأَينِ وَالحَيّاتِ مُحتَفِياً ... نَفسي فِداؤُكَ مِن سارٍ عَلى ساقِ
طَيفِ اِبنَةِ الحُرِّ إِذ كُنّا نُواصِلُها ... ثُمَّ اِجتُنِتَ بُها بَعدَ التِفِرّاقِ
تَاللَهِ آمَنُ أُنثى بَعدَما حَلَفَت ... أَسماءُ بِاللَهِ مِن عَهدٍ وَميثاقِ
إِنّي إِذا خُلَّةٌ ضَنّت بِنائِلِها ... وَأَمسَكَت بِضَعيفِ الوَصلِ أَحذاقِ
نَجَوتُ مِنها نَجائي مِن بَجيلَةَ إِذ ... أَلقَيتُ لَيلَةَ خَبتِ الرَهطِ أَرواقِ (٥٤)

وصف الشاعر في الأبيات السابقة فرسه بأنه صديق له يتحمل ويصبر معه على ما يلاقيه من تحمل للأذى والمشقة ، وشبه نفسه بالخيل عند عدوه ، حيث إنهما يمتازان بالصبر والشدة على الأذى والمشقة ، فكلاهما اجتماعي ،أي : تأبط شراً وفرسه .

٥٤- ديوان تأبط شراً / صـ١٢٧-١٢٩

إن صورة الخيل عند عمرو بن براقة ، هي الدلالة الأسمى ، تتفجر من خلالها القوة والشجاعة ، والحب والألفة من خلال تقاسم الطعام بينه وبين فرسه ، فيقول :

غَبَرَت خَيلُنـــــا نُقاسِمُها القـــو ... تَ وَلَم يُبق حاصِدُ المَحـــلِ عـــودا

شَتَـــوَةٌ توسِعُ الجِمـــالُ لَها الرَس ... لَ وَنُســـقي عِيالَنـــــا تَصريـــدا

ذاكَ حَتّى إذا الرَبيـــعُ نَفـــى الأز ... مَةَ قُدنـــا بها شَياطيـــنَ قـــــودا

وَرَمَينـــا بها دِيـــارَ الأعـــادي ... فَأثابَت بكُـــــلِّ قعـــبٍ قعـــــودا

حَبَّـــذا هُنَّ مَتجَـــراً رَبحَ الصَفـــ ... قَة تَحـــوي الغِنى وَتَشفي الحَقـودا (٥٥)

يفتخر الشاعر في الأبيات السابقة بشجاعة فرسه ، وعده أقرب من الناس إليه وأنه لا يتخلى عنه ، كما فعل أقرانه من الشعراء الصعاليك ، وكشف الشاعر عن مدى حبه لفرسه منذ اللحظة الأولى في أبياته ؛ حيث يمثل لنا قمة الاتحاد بين الشاعر وفرسه ، فالفرس والشاعر هما شخص واحد ، حيث إن الفرس أظهر الكثير من الإشارات إلا إن الشاعر احتفظ بالدلالات التي يعكس من خلالها مشاعره وأحاسيسه الداخلية .

كما شكلت صورة الفرس عند عروة بن الورد في قصائده معادلاً شعرياً استعمله الشاعر بوعي كامل لحقيقة تداعيات صورة الفرس المملوءة بالدلالة؛ مما جعل صورته تتضح بالشكل الفني الذي يجعله يمتلك القدرة على حمل معانٍ متعددة فيقول :

تقُولُ: لكَ الويـــلاتُ هلْ أنتَ تاركٌ ... ضَبُـوءًا برَجْـــلٍ تَـــارَةً وبمِنْســـَر

ومُستَثبتٌ فِي مـــالِك العـــام إنَّنِي ... أرَاك على أقتـــادِ صرمـــاءَ مُذْكِـــر (٥٦)

تُلمح صورة الفرس بوظيفته الدلالية ، وهي تتجلى بوضوح كلمحة فنية مملوءة بالحيوية ، وهي سمة من سمات الصورة الشعرية ، وإذ يعمد الشاعر إلى العناية بالدلالة الرامزة التي ينبثق منها المعني السطحي الأول ، حيث إن كل منهما يشارك الآخر في حياته وأن كليهما يتصفان بالقوة والفروسية ، فيتخذ الخيل عند غزوه لجلب الرزق للفقراء ؛حتى يستطيع توفير حياة كريمة لهم على الرغم من تعرضه للموت هو وفرسه .

٥٥- ديوان عمرو بن براقة / صـ٩٣

٥٦- ديوان عروة بن الورد / صـ٦٧-٦٨

ويقول السليك بن السلكة واصفاً فرسه :

كَأنّ قوائِـــمَ النّحـــــامِ لَمّـــــا تَحَمّـــلَ صُحبَتي أصُـــلاً مَحـــــارُ

عَلى قرمـــاءَ عاليَـــةٌ شَـــواهُ كَأنّ بَيـــاضَ غُرّتِـــهِ خِمَـــــارُ

وَما يُدريـــكَ ما فقـــري إليـــهِ إذا مَـا القـــومُ وَلّوا أو أغـــاروا (٥٧)

صورة الفرس في الأبيات السابقة تنتقل من مستوى الواقع إلى مستوى الدلالة التي توجهها الذات ، حيث إنهما يتشاركان في صورة واحدة تجمع بينهما، وهي القوة والشجاعة ، فهذه صورة تعبر تعبيراً دقيقاً عن مواجهة الشاعر والخيل للعدو ، ومواجهة الصعاب .

ب-المعادل الموضوعي والفني للانفعالات

يكشف المعادل الموضوعي لرؤيا الشاعر أصدق كشف فمن خلاله يجسد رؤياه ضمن صور أو معطيات ، فالمعادل الموضوعي لا " يعبر الكاتب عن آرائه تعبيراً مباشراً ، بل يخلق عملاً أدبياً فيه مقوماته الفنية الداخلية التي تكفل فنياً تبديد الأحاسيس والأفكار والإقناع بها بحيث لا يحس المرء أن الكاتب يفضي إليها بذات نفسه بإثارة المشاعر المباشرة دون تبرير لها (٥٨)

فحينما نقرأ القصيدة ننسي كل ما هو خارج عنها فـــ " الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال في صورة فنية ، هو العثور على معادل موضوعي " أي العثور على " مجموعة أشياء ، على موقف ، على سلسلة من الأحداث تكون هى الصيغة الفنية التي توضع فيها تلك العاطفة .حتى إذا أعطيت الوقائع الخارجية التي لابد أن تنتهي خلال التجربة الحسية استثيرت العاطفة على التو "(٥٩)

٥٧- ديوانه /صـ٥٢ -٥٣

١- نظرية المعادل الموضوعي بين النقد العربي القديم والحديث : دراسة تطبيقية علي الشعر العربي الحديث – سارة حسب الرسول محمد – رسالة ماجستير – جامعة النيلين – كلية الآداب – السودان - سنة ٢٠١٢م / ص٦.

٢- توماس اليوت الشاعر الناقد – ترجمة إحسان عباس -نشر بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – بيروت – سنة ١٩٦٥م /ص١٣٣..

كما أن شعراء الصعاليك يستحضرون من خلال المعادل الموضوعي حساً أعمق ودلالة أكثر كثافة من ورائه ، متخذين من صور الخيل معادلاً موضوعياً لحالتهم، وفي ذلك تتشكل صور الخيل بنماذج باهرة من خلال انفعالات الشعراء ورغباتهم عبر محتوى صورة الخيل ، فيجسدون رؤياهم ، ويخلقون مشاهد تدل على ما يريدون تجسيده

إن من يدقق النظر في شعر الصعاليك يجد أنهم رغم تمردهم على كل ألوان الحياة والقبيلة، حتى على شكل المقطوعة ، إلا أنهم حمّلوا أشعارهم ما لا يعد ولا يحصى من تلك الزفرات النفسية والتنهيدات البشرية، ليشكل الشاعر الصعلوك دواخله النفسية المكلومة ليبثها في أشعاره وأبياته، وكان من الضروري له أن يبحث عن معادلات موضوعية؛ لتحمل بنسق صورها الفنية آلامه وأتراحه النفسية.

ومن تلك المعادلات الموضوعية المستخدمة في شعر الصعاليك الخيل، فقد أتت الخيل في عدة مواضع في أشعارهم كمعادل موضوعي يدل على مشاركة الحالة النفسية والروحية للصعلوك، ومن ذلك قول الشنفرى : (الطويل)

ولا عَيبَ في اليَحمومِ غَيرُ هُزالِــهِ عَـلَى أنَّهـُ يَومَ الهِيــاجِ سَمِيــنُ

وكَم مِن عظيمِ الخَلقِ عبلٍ مُوثَّق حـواهُ وفـيـهِ بَـعـدَ ذاكَ جُنــونُ[٦٠]

فالشنفرى هنا يصف فرسه بأنه تام الصفات، لا عيب فيه إلا أنه هزيل البنية لفقر صاحبه ، غير أنه يوم الهياج سمين، مقتدر على خوض القتال ، عظيم القدر والخلق كصاحبه، يقوم بتشريد الخيل العظيمة وقتلها .

والمدقق في تلك الصورة يجد أن الشنفرى جعل فرسه صعلوكا مثله ، يحدث معه ما يحدث للصعلوك، ويصدر منه ما يصدر من الصعلوك وقت المعركة، ومن هنا فقد اتخذ الشاعر من فرسه معادلا موضوعيا لذاته ، وكأنه يتحدث عن نفسه ؛ ليقرب لنا صورته الداخلية عن طريق معادل موضوعي قريب إلى ذاته، وصورة قريبة إلى ذهن المتلقي .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فبعد مقتل الشنفرى رثاه صاحبه تأبط شرًا ، فتأبط شرًا يصف فرس صاحبه الأشقر بأنه سريع الجري ، فكأنه عقاب عظيم بمخالب حادة ، وهو في عدوه كأنه البحر ، الذى يزخر بأمواج متلاطمة، فالشاعر قد جمع لفرس صاحبه

٦٠-ديوانه / صـ٧٧

القوة والسرعة والعطاء، ومما لا شك فيه أن الشاعر هنا لا يرثي فرس الشنفرى. إنما يرثي صاحبه، وقد اتخذ من فرس الشنفرى معادلًا موضوعيًا لبكاء رفيقه . وقد أبدع في معاملة المعادل الموضوعي الذى حمله صفات الإنسان والقدوة والصديق.

ذلك الصديق الذى كان بحرًا في عطائه ، قدوة لأصحابه ، سريع الجري كالعقاب الجارح.

ولم يكن وصف السليك بن السلكة لفرسه بعيدًا عن تلك الزاوية ، حيث يقول :

كَـــأنّ قوائِـــمَ النّحـــــام لَمّـــــا تَحَمَّـلَ صُحبَتـــي أصُـــلاً مَحـــــارُ
عَلى قرمـــــاءَ عاليَـــةً شَـــــواهُ كَـــأنّ بَيـــــاضَ غُرّتِـــهِ خِمَـــــارُ
وَما يُدريـــكَ ما فقـــري إلَيـــــهِ إذا مَـــــا القـــومُ وَلّوا أو أغـارُوا
وَيُحضِرُ فوقَ جُهدِ الحُضر نَصّـــاً يَصيـــــدُكَ قافِـــــلاً وَالمُـــــخُّ رارُ[٦١]

فالسليك قد أضفى على فرسه صفات كثيرة ، كالسرعة والقوة ، وقد أوجد الشاعر صلة عميقة بينه وبين الفرس ، فلا يستطيع الشاعر التخلي عنه أبدا، ويبرز مدى حاجته له وقت الهرب أو ساعة الإغارة ، فالشاعر جعل فرسه طوق النجاة وقت الشدة، وربط بينه وبين الفرس برباط وثيق ، فجعله سبب البقاء ، ومن ثم فقد جعله معادلًا موضوعيا لساقه وقدميه وقت العدو والإغارة ، فالسليك بدون عدوه وجريه هالك ، فجعل من الفرس معادلًا موضوعيًا للعدو الذى يحتاجه بشدة وقت الشدائد.

و لقـــد حاول القدماء التفريق بين الفرسان والصعاليك بوصف معنى الفروسية هو ركوب الخيل والحـــذق بأمورها، وقد أخرجوا الصعاليك من دائرة الفرسان بحجة أن الصعاليك لا يركبون الجيـــاد، بل كانـــوا رجالة حتى أنّهم كانوا معروفين بسرعة العدو التي تضاهي سرعة الجياد ، وقد أشار الأصمعي إلى التفريق بين الفرسان والصعاليك في قوله : "فيهم أربعون شاعراً مفلّقاً ، وكلّهم يعدو على رجله ليس فيهم فارس" في حين لا نجـــد ذلك التمييز مـــوجوداً في الدراســـات الحديثة، فتُقسم بين الفرسان والصعاليك ، كما قسّموا الصعاليك إلى فرسان ورجالة بحسب استعمالهم للخيل.

٦١-ديوانه / صـ٥٢-٥٣

والحقيقة أن عدم استخدام معظم الصعاليك للجياد لا يعني عدم قدرتهم على ركوب الخيل وعدم معرفتهم بأمورها، فقد يكون الفقر الذي يسيطر على حياة الصعاليك وراء ذلك، ولاسيّما وإنّ أثمان الجياد باهظة قياساً بوضعهم المادّي المعدم، لذا حتّم الأمر عليهم أن يكونوا رجّالة لا فرسان،لا لجهلهم بركوب الخيل، وكان الصعاليك يغيرون ركباناً كذلك، فكانوا يجيدون ركوب الخيل والإغارة عليها، وعدّ بعضهم من خيرة فرسان الجاهلية.

فنجد أن عامر بن الطفيل يصوّر الخيل وهي تخوض الحروب عابسة وكأنها تُدرك هولها ونتائجها ،إذ يقول :

ألَسْنا نَقُودُ الخيلَ قُبّاً عَوَابِساً ونُخضّب يومَ الروعِ أسيافنَا دمَا(٦٢)

ينزل عامر بن الطفيل و فرسه إلى ساحة المعركة ويواجها الأعداء فيصبح كرّهما واحداً ومصيرهما واحداً ، ويستعدّ الفرس مع فارسه للمصير المحتوم، فإمّا الموت معاً أو النصر ، ويبرز لنا حواره مع فرسه ثنائية المصير بين الفرس وفارسه ، فيقول :

لقــد عَلِمَتْ عُليا هَوَازنُ أنَّني أنا الفَارسُ الحـــامي حقيقةَ جَعْفَـــرِ
وقــد عَلِمَ المزنوقُ أنّي أكُرُّهُ عَشِيةَ فَيْفَ الريـــحِ كرَّ المُشهَّـــرِ
إذا ازْوَرَّ من وقع الرماح زَجَرْتُهُ وقلــتُ لــهُ ارجـــعْ مُقبلاً غَيْرَ مُدْبِرِ
وأنْبَأتُــه أنّ الفــرارَ خَــزَايــةً على المَرْءِ مـــــالمْ يُبْلِ عُذْراً فيُعْذَرِ
ألَسْتَ تَرى أرمَاحَهُم فيَّ شُرَّعاً وأنتَ حِصَــانٌ مــاجِدِ العِرق فاصبرِ(٦٣)

وتستمرَ تلك الثنائية حتى نهاية المعركة إذ يقول:

وما رِمْتُ حتّى بَلَّ صَدْرِي ونَحْرَهُ نَجِيــعٌ كهُدّابِ الدِّمَقْــسِ المُسَيَّرِ(٦٤)

فلم يبارحا ساحة المعركة حتى خضب جسداهما من دم الأعداء، وقد حملت هذه الأبيات دلالة الثبات ورفض الخسارة ، وهي دلالة إيجابية يتحلى بها الفارس الحقيقي . ويشيد بفرسه وملازمته له في كُلَ الأوقات ، فيقول :

٦٢-ديوانه /ص١٢٨.
٦٣-ديوانه /ص ٦١.
٦٤-السابق /ص ٦٥.

فَــمَا يُفــارِقُني المزْنُــوقُ مُحْتَمَلاً رِحَالــةً شَدّهــا المِضْمَارُ بالثَّبَجِ(٦٥)

ويشبّه عــامر انقضاض خيولهم بانقضاض العقــاب على الفريسة ، دلالة على شدَتها وقوَتها، يقول :

وانْقَضّتْ الخَيلُ من وادي الذّنابِ وقد أصغتْ أسِنّتُها حُــمراً من الوَدَجِ (٦٦)

ولا يختلف عروة بن الورد عن سابقيه من الفرسان في شدّة تعلّقه بفرسه، إذ كانت علاقته بفرسه وطيدة ليس لها حدود، فهو رفيقه الذي يؤنس وحشة ليله ويدفع عنه أخطارها، فها هو يتحدّث عن ليلة عصيبة نجا فيها من خطرٍ مُحدق به، والفضل في ذلك يرجع لفرسه قرمل ، يقول :

كليلة شيباء التي لستُ ناسياً وليلتُنــا إذ مــــنّ مــا منَ قرملُ(٦٧)

فيذكر عروة فضل فرسه عليه مُعترفاً بجميله في تلك الليلة التي لا ينساها أبداً ، على الرغم من شدّة تعلّق عروة بفرسه إلا أنّنا لانجد عنده وصفاً للفرس كما نجده عند الآخرين من حيث صفات القوّة ، ولعلّ ذلك يرجع إلى عدم اهتمام الصعاليك بالجانب الشكلي والفني ، وكلّ مايعنيهم هو الجانب الإنساني والأخلاقي .

وها هو عمرو بن برّاقة الذى يعتز بخيله ويشاركها كل وسائل الحياة في العيش ، حتى ليشاركها طعامه وقت الافتقار . حيث يقول :

غَبَرَت خَيلُنــا نُقاسِمُها القــو تَ وَلَم يُبق حاصِدُ المَحــلِ عــودا
شَتــوَةٌ توسِعُ الجِمــالُ لَها الرَس لَ وَنُسقي عِيالَنــا تَصريــدا
ذاكَ حَتى إِذا الرَبيعُ نَفــى الأَز مَةَ قُدنــا بِها شَياطيــنَ قــودا
وَرَمَينا بِها دِيــارَ الأَعــادي فَأَثابت بِكلِّ قَعــبٍ قَعــودا(٦٨)

٦٥- ديوانه /ص٣٥.
٦٦-السابق /ص٣٧.
٦٧-ديوانه /ص٩١
٦٨-ديوانه / ص٥٢-٥٣

فالشاعر هنا رسم لنا المبدأ الأكبر للصعلكة ، وهو مبدأ الاشتراكية، حيث يقتسم قوته مع خيله، التى تظل عنده طوال فترة الجدب ، للحد الذى يؤثرها على عياله، حتى إذا أتى الربيع وانتهت الأزمة قادها إلى الغزو والإغارة .

فالمتأمل في تلك الأبيات يجد أن الشاعر قد اتخذ من الخيل معادلًا موضوعيًا للتعبير عن تلك الحياة التى يعيشها مع رفاقه الصعاليك، فهو يقاسمهم قوته ، ويؤثرهم على عياله، حتى إذا ما انتهت الأزمة أغار بهم ليغنم .

وإذا ما تركنا خيل عمرو بن براقة ونظرنا نحو خيل الشاعر الصعلوك صخر الغي ، الذى راح يرثي ابنه في قصيدة دامعة، والتى راح يصور فيها الموت بعدة صور حيث يقول : (الوافر)

فإمَّا ينجــوا من خــوفِ أرضٍ ... فقــد لَقيــا حُتوفهمــا لزامــا
وقــد لَقِيا مع الإشـراق خَــيْلاً ... تســوفُ الوحشَ تحسَبُهــا خيامــا
بكــلِّ مُقلّــصٍ ذكَــرٍ عَنُــودٍ ... يَبُــدُّ يــدَ العَشَنَّــق واللجامــا
فشامَــتْ في صــدورهما رماحاً ... من الخَطّــيِّ أشربَــت السمامــا (٦٩)

فهو يصور نهاية تلك الواردات، حيث فاجأتها خيول عنيدة وقوية أودت بحتفها، وهو هنا محمل بكمية كبيرة من الحزن والألم على ابنه. وهو هنا يتخذ من تلك الخيول القوية والعظيمة والتى لا يستطيع رد جماحها لجام معادلاً موضوعيًا نتج من حزنه الدفين ، حيث عادل بتلك الخيول أسباب المنايا والموت الذى لا يوقف أسبابه شيء، وهو مصير كل حي .

وها هو حاجز بن عوف الأزدي يصف لنا بطولته في المعارك، وكيف يخوض غمار المعركة بفرسه، التى إن حاولوا عقرها فداها بنفسه حيث يقول :

فأمَّــا تَعْقِــروا فرسِــي فإنَّــى ... أقدِّمُهــا إذا كَثُرَ التَّغــاري
وأحْمِلُهــا على الأبْطــالِ إنــي ... على يــومِ الكَريهَــةِ ذُو اصْطبار (٧٠)

٦٩-ديوانه /ص١٢٣.
٧٠-قصائد جاهلية نادرة -يحيي الجبوري / صـ٧٧

فالشاعر في هذا النص يستخدم مفردة فرسي للدلالة على أداة النصر ومصدر القوة ضد الأعداء ، فهو إذا حمل فرسه على الأبطال هزمهم ، فهو قائد صبور في الشدائد ، خبير بأحوال المعارك. والشاعر هنا يستخدم الفرس كمعادل موضوعي لقبيلته وجماعته ، فهم مصدر قوته والمعين له في تحقيق النصر .

ويقوم الشاعر باستخدام مفردة الخيل في القصيدة ذاتها حيث يقول :

صَلَيْتُ بغَمْـــرةٍ فخَرَجْتُ مِنْهـــا كَنَصْلِ السَّيْفِ مُخْتَضِبَ الغِـــرار

كَأنَّ الخَيْـــلَ إذْ عَرَفَـــتْ مَقامِـــي تُفـــادي عن شَتيمِ الوَجْـــهِ صَـار

أكَفَّنُهُـــمْ وأضْربهُـــمْ ومِنِّـــي مُشَـــلْشَـلَـــةً كحَاشِيَـــةِ الإزار[٧١]

فالشاعر يستخدم مفردة "الخيل" هنا ليعادل بها القبائل المعادية والأعداء، تلك القبائل التى عرفته كشتيم الوجه لا يرحم ، فهو كحمار وحشي غليظ الوجه مكدمه عنيف في تعامله .

ومما سبق يتضح عمق ما استخدمه الشعراء الصعاليك في شعرهم من تسخير الرموز، وبث المعادل الموضوعي في أشعارهم؛ ليعادلوا بها موضوعات عدة . وقد حملوا تلك المعادلات الموضوعية آلامهم وزفرات قلوبهم المكلومة، وقد جعلوا من تلك المعادلات الموضوعية آفاقًا مشتركة تجعل من المتلقي مشاركًا في آفاق الشعر ، يحمل المشاعر ذاتها التى يحملها الشاعر.

٧١-السابق / الصفحة نفسها .

الخاتمة

مما تقدم يُلحظ أن صورة الخيل عكست في مجملها الذات الشاعرة ، كما أنها عكست دلالاتها في التعبير عن فلسفة مجموعة من الأفراد ، وجدت في الخيل ملاذاً عن البحث في البدائل .

وقد ساعدت صورة الخيل في شعر الصعاليك في إثراء الدلالة الشعرية ، فضلًا عن توضيح الكثير من حياتهم ، فقد عبروا عن تنقلاتهم في الصحراء وتعرضهم للمخاطر ، فهم والخيل سواء في تعرضهم للأهوال ، ولكن الخيل عندهم تختلف باختلاف تجاربهم؛ مما يعطي لكل نص من النصوص سمته التي تميزه عن غيره ، فضلًا عن طبيعة السياق الشعري الذي يلعب دوراً مهماً في القصيدة ، وطريقة صياغته عبر آليات تواصل مختلفة لكل نص على حدة ، إضافة إلى الصيغة اللغوية القائمة على الآداء الإشاري عن طريق الطرق المجازية.

وقد توصلت الدراسة إلى :

-إن الخيل ترمز عند الصعاليك للحياة والتجدد.

- كانت مناظر عدو الخيل نقطة جذب التف حولها شعراء الصعاليك؛ لما فيها من الإثارة التي وجدت بسبب الصراع بين الحياة والموت .

- أدرك شعراء الصعاليك أثر الخوف في مضاعفة سرعة الفرار ، فاستثمروا هذا عند نهبهم للقبائل مما كان له أثر على أشعارهم التي كانت في الغالب مقطوعات أكثر من كونها قصائد .

-إن الشعراء الجاهليين -بصفة عامة والصعاليك بصفة خاصة- كانوا يجولون بخيولهم الصحراء ، فأخذوا يعبرون في أشعارهم عن الصداقة والألفة بينهما، كما أنهم كانوا ينعتون الخيل بصفات الصاحب والصديق .

- ازدياد تعلق الصعاليك بحيواناتهم ، وذلك تعويضًا لهم عن الأهل والأصحاب .

- كان للدلالة الرامزة دور كبير في الكشف عن طرائق التعبير ، وتحليل القيم اللغوية ، حيث إن النص قالب لغوي بالدرجة الأولى ، ولا ينكشف سره إلا من خلال إعادة بنائه .

– سيطرة بنية المقابلة على بقية البنى ؛ وذلك يرجع إلى الفارق بين الغنى والفقر أو الكرم والبخل ... وغيرها من الأشياء المتناقضة .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

– ديوان امرئ القيس الكندي – ت/ أبو الفضل ابراهيم – ط دار المعارف مصر سنة ١٩٥٨.

– ديوان تأبط شراً وأخباره – جمع وتحقيق / على ذو الفقار شاكر – دار الغرب الإسلامي – ط (١) سنة ١٩٨٤.

– ديوان السليك بين السلكة – أخباره وشعره – دراسة وجمع وتحقيق / حميد آدم ثويني – كامل سعيد عواد –ط(١)– مطبعة العاني – بغداد – سنة ١٩٨٤.

– ديوان الشنفرى – حققه وشرحه / أميل بديع يعقوب – دار الكتاب العربي .ط(٢) سنة ١٩٩٦.

– ديوان عامر بن الطفيل – تحقيق أنور أبو سويلم – ط(١) – دار الجيل – بيروت سنة ١٩٩٦ .

– ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك – دراسة وشرح وتحقيق / أسماء أبو بكر محمد – دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩٨ .

– ديوان عنترة بن شداد العبسي – ت/ محمد سعيد مولوي – ط المكتب الاسلامي – دمشق سنة ١٩٧٠ .

– ديوان / النابغة الزبياني – صنعه ابن السكيت – ت شكري فيصل – بيروت سنة ١٩٨٦ .

– الحيوان – الجاحظ – ت / عبد السلام هارون – مصر سنة ١٩٤٥ .

– الشعر والشعراء – ابن قتيبة الدينوري – ط ليون سنة ١٩٠٢.

– طبقات فحول الشعراء – ابن سلام – ت/ محمود محمد شاكر – دار المعارف – مصر – ط(١) سنة ١٩٥٢.

– قصائد جاهلية نادرة – جمع وتحقيق / يحي الجبوري – مؤسسة الرسالة ط (٢) سنة ١٩٨٨ .
– الكتاب – سيبويه – مكتبة الأعلى – بيروت سنة ١٩٧٦.

ثانياً : الكتب العربية :

– بناء القصيدة في الشعر العربي بالخليج – ماهر حسن فهمي – (د ت) .
– التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية – محمد مفتاح – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – بيروت – ط(١) سنة ١٩٩٦.
– ثلاثة شعراء مقلون (جمع وتحقيق ودراسة) – شريف راغب العلاونة – دائرة المكتبات والوثائق الوطنية – الأردن – ط(١) سنة ٢٠٠٧ .
– الخيال الشعري عند العرب – أبو القاسم الشابي – كلمات عربية للترجمة والنشر – مصر(د ت)
– الرؤى المقنعة – كمال أبو ديب – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ .
– الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليف – دار المعارف – مكتبة الدراسات الأدبية – ط(٣) (د.ت) .
– الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – يحي الجبوري – مؤسسة الرسالة ، بيروت – ط(٥) سنة ١٩٨٦ .
– شعر الصعاليك : منهجه وخصائصه – عبد الحليم حفني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ط(١) سنة ١٩٧٩ .
–الشعر العربي بين الجمود والتطور – محمد عبد العزيز الكفراوي – دار القلم – بيروت (د ت) .
– شعرنا القديم والنقد الجديد – وهب أحمد رومية – المجلس الوطني للثقافة والفنون – الكويت سنة ١٩٩٠.
– الطبيعة في الشعر الجاهلي – نوري حمودي القيس – عالم الكتب – ط(٢) سنة ١٩٨٤.
– عشرة شعراء مقلون –حاتم صالح الضامن –ط بغداد –سنة ١٩٩٠

– علم اللغة – تمهيد عام – محمد حسن جبل – مطبعة السعادة – القاهرة سنة ١٩٨٢.
– المرأة في الشعر الجاهلي – على الهاشمي – مطبعة المعارف – بغداد سنة ١٩٦٠
– مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي – حسين عطوان – دار المعارف – مصر سنة ١٩٧٠ .
– النقد الأدبي الحديث – محمد غنيمي هلال – بيروت – دار العودة سنة ١٩٧٨ .

ثالثاً : الكتب المترجمة :

–توماس اليوت الشاعر الناقد – ترجمة إحسان عباس –نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – بيروت – سنة ١٩٦٥م.

رابعاً : رسائل علمية :

– بنية القصيدة الجاهلية " دراسة فنية موضوعية "– سعيدة على عبد الواحد – رسالة ماجستير – جامعة أم درمان – السودان سنة ٢٠٠٧ .
– الخيل في الشعر الجاهلي – حمود بن خلفان – رسالة دكتوراه – جامعة مؤتة – الأردن – سنة ٢٠٠٥ .
– نظرية المعادل الموضوعي بين النقد العربي القديم والحديث : دراسة تطبيقية علي الشعر العربي الحديث – سارة حسب الرسول محمد – رسالة ماجستير – جامعة النيلين – كلية الآداب – السودان –سنة ٢٠١٢م .